



في أحد أيام أكتوبر/تشرين الأول الماضي، وبينما كنت أعبر معبر السلامة التركي صوب بلدي سوريا التي غُيّبت عنه قسراً ثلاثة عقود، كانت الجلبة داخلية توازي الجلبة التي أمام ناظري، حيث السوريون عائدون وغادرون إلا أن معظمهم مغادرون من جحيم لم يعد محلاً لسكنى، كما يقول لك كل من يخرج وفي عينيه دموع تطفر وفي حلقه غصات.

صور آل الأسد اختفت من واجهات مباني نقطة الحدود لتحل محلها لافتات سوريا الحرة، وعلم الثورة بألوانه الزاهية أزاح علما طالما ارتبط بحكم حزب البعث، بينما صور الأسد الأب (حافظ الأسد) والابن (بشار الأسد) تناشرت على أرض المبني يدوسها الجميع، مشهد ينبع بأن معركة قوية وقعت هنا.

تابوهات تدينis عائلة الأسد بالأمس غدت تابوهات تقديسها، فطوال العقود الماضية من حكم سلالة آل الأسد توقفت الحياة كلها بمعاهمها السياسية والفكرية والثقافية والاقتصادية.. إلخ، وتصلبت معها شرایین سوريا.

أقف في طابور المصطفين، البسمة تعلو محيّا موظف الجوازات ويغيب عنه ما كنت أسمعه من أصدقاءي وأقاربِي عن طلبات الرشوة على المكشوف. يختم جوازي مشفعاً ذلك بابتسمة وعبارة "أهلا بك في سوريا الحرة الجديدة".

كنت أغالب دموعي وأغالب التعبير عن فرحتي وأنا أرد عليه قائلاً: هل تعرف أن هذا الختم هو أغلى ما أملكه على هذا الجواز؟ إنه ختم غاب عن جوازي ثلاثة عاماً. فابتسم وقال: أمثالك كثيرون يمرون يومياً.

يوم فررت من نظام الأب في 24 مايو/أيار 1981 كان النظام -كما يقول المعارضون- قد بذر بذور تدمير المدن فبدأها بتدمير مدينة حماة، الذي ترافق مع سياسة ممنهجة بالقتل خارج القانون وتغريغ سوريا من كواصرها، وامتهان الكرامة، و"ترحيف" المدن السورية، ونشر أحزمة البوس حول المدن الكبرى، و"تطييف" كل ما يمت إلى الدولة ومؤسساتها بصلة.

فقد ابتلع -كما يقول المعارضون- النظام الطائفي -وليس الطائفة-. كل مؤسسات الدولة عسكرياً وسياسياً واقتصادياً وثقافياً، ولعل الوقت سيأتي ليكتب بما ألحقه النظام بحق سوريا.

تلك البذور رعاها الأب لاحقاً ويسقيها الابن من بعده لتحول إلىأشجار موت حقيقة تقذف بثمارها المتمثلة في البراميل المتفجرة والقنابل الفراغية بعد أربعين عاماً.

أحمل جوازي وأبتعد عن موظف الجوازات لأنّي وجوهاً غابت عن ألسنتها قراءة سورة "يس". أسأل أحدهم عن الفرق بين الأمس واليوم من حيث تعاطي موظفي الهجرة والجوازات، فيردّ ما قاله أحد سكان إدلب: "أنا إنسان ماني حيوان"، مضيفاً: يعاملوننا كبشر وليس كحيوانات كما كانوا يعاملوننا من قبل.

نمتلي سيارتنا وتحتفى وراءنا نقطة الحدود...، لكن نظل مروج الزيتون والفستق الحلبي رفيق الدرب الذي لا يخذلنا...، يلتفت مرافقى مشيراً إلى على يميني قائلاً إنها مدينة مرج دابق، حيث وقعت أول مواجهة بين المماليك والعثمانيين بقيادة السلطان سليم الأول أو ما يسمى بـ"سليم ياوز" أي الشرس عام 1516، انتصر فيها الجيش العثماني، وكانت مرج دابق التي ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام في أحاديثه بوابة الفتح العثماني إلى العالم العربي، ويتيمن اليوم بفتحها على أنها ستكون بوابة فتح سوريا كلها وتحريرها من نظام الأسد.

الحاضر الأكبر في السماء هو الطائرات، وصناديق الموت التي تحملها لتك بها الحجر والشجر، الخوف كل الخوف هنا من البراميل المتفجرة، وإن كان الكثيرون بدؤوا يعتادون عليها.

المصادر: